آثار عربية

القسم الادبي

(خطبة أساس البلاغة)

« خير منطوق به أمام كل كلام ، وافضل مصدّر به كل كتاب ، حمد الله تعالى ومدحه بما تمدّح به نفسه فى كتابه الكريم ، وقرآنه المجيد ، من صفاته المجراة على اسمه لا على جهة الايضاح والتفصلة ، ولا على سبيل الابانة والتفرقة ، اذ ليس بالمشارك ، فى اسمه المبارك ، « رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًّا » وإنما هى تماجيد لذاته المكونة لجميع الذوات ، لاستعانة ثم بالاسباب ولا استظهار بالادوات » . وأولى ما قُفّى به حمد الله الصلاة على النبى العربى المستل من سلالة عدنان ، المفضل باللسان ، الذى استخزنه الله الفصاحة والبيان ، وعلى عترته وصحابته مَدَارِهِ العرب وفحولها ، وغرر بنى معد وحجولها ،

هذا — ولما أنزل الله كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق ، ووَنَت عنها خُطا الجياد القرّح ، كان الموفق من العلماء الاعلام ، انصار ملة الاسلام ، الذابّين عن بيضة الحنيفية البيضاء ، المبرهنين على ما كان من العرب العرباء ، حين تُحدوا به من الاعراض عن المعارضة باسلات السنتهم ، والفزع الى المقارعة بأسنة أسلهم ، من كانت مطامح نظره ، ومطارح فكره ، الجهات التى توصل الى تبين مراسم البلغاء ، والغور على مناظم الفصحاء ، والمخابرة

بين متداولات الفاظهم ، ومتعاورات اقوالهم ، والمعايرة بين ما انتقوا منها واتخلوا ، وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا ، وما استركوا واستنزلوا ، وما استفصحوا واستجزلوا ، والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الاعجاز أوقف ، وبأسراره ولطائفه اعرف ، حتى يكون صدر يقينه اثلج ، وسهم احتجاجه افلج ، وحتى يقال هو من علم البيان حظىّ ، وفهمه فيه حاظىّ

والى هذا الصوب ذهب عبد الله الفقير اليه محمود بن عمر الزمخشري عفا الله عنه فى تصنيف كتاب (اساس البلاغه) وهو كتاب لم تزل نعام القلوب اليه زفافة ، ورياح الآمال حوله هفافة ، وعيون الافاضل نحوه روامق ، والسنتهم بتمنيه نواطق ، فلبّت له العربية وما فصح من لغاتها ، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الاعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها ، ومن قراضبة نجد فى اكلأها ومراتعها ، ومن سماسرة تهامة فى اسواقها ومجامعها ، وما تراجزت به السقاة على أفواه قلُبها ، وتساجعت به الرّعاة على شفاه علَبها ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات المماتنة ، وتزاملت به سفراء ثقيف وهذيل فى ايام المفاتنة ، وما طولع فى بطون الكتب ومتون الدفاتر من روائع الفاظ مفتنّة ، وجوامع كلم فى احشائها مجتنّة ،

ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمالات المفلقين ، او ماجاز وقوعه فيها ، وانطواؤه تحتها من التراكيب التى تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن ، لجريها رسلات على الأسلات ، ومرورها عذبات على العذبات ، ومنها التوقيف ، على مناهج التركيب والتأليف ، وتعريف مدارج التركيب والترصيف ، بسوق الكلمات

متناسقة لا مرسلة بددا ، ومتناظمة لاطرائق قِدَداً ، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية الى مراشد حر المنطق ، الدالة على ضالة المنطيق المفلق ، ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب الفصيح ، بافراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح ،

فمن حصل هذه الخصائص وكان له حظ من الاعراب الذى هو ميزان اوضاع العربية ومقياسها ، ومعيار حكمة الواضع وقسطاسها ، واصاب ذروةً من علم المعانى ، وحظى برَسٍّ من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة ، فحُل نثره ، وجزل شعره ، ولم يطل عليه ان يناهز المتقدمين ، ويخاطر المقرمين ، وقد رتب الكتاب على اشهر ترتيب متداولاً ، واسهله متناولاً ، يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف الثُمام وحبل الذراع ، من غير ان يحتاج فى التنقير عنها الى الايجاف والايضاع ، والى النظر فيما لا يوصل الا باعمال الفكر اليه ، وفيما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه ، والله سبحانه وتعالى الموفق لافادة افاضل المسلمين ، ولما يتصل برضى رب العالمين ،

(المنار) نشرنا هذه الخطبة لتكون هادية لطلاب البلاغة الى منهاجها ومرشدة مريدي الفصاحة الى ينابيعها وأثباجها ، ولم نفسر الفاظها الغريبة ، ونشرح مغازيها العجيبة ، لنبعث همة التلامذة الى المراجعة والمكاشفة ، ونحملهم على المباحثة والمشارفة ، ونصح لهم أن يحفظوها ، ثم يقلدوها ويحتذوها ، فهكذا فليكتب الكاتبون ، وهكذا فليسمع الساجعون ، والا فلا